

مودن عبد الرحيم

اسوداد اسفل الجفنين ... تمتص اللعاب بعصية حتى خيل اليك ان
اللهة قد تحولت الى حاجز اسمنتي ... تدفع اللعاب بعنف داخل الفم ...
يلتصق لسانك اليابس بالتجويف الداخلي للفك العلوي محدثا خشخشة
مقينة ... تطرد عن عينيك ذبابا ملحاحا ... تنتظر نزوله بلهفة وشوق
زائدين ... مددت عنقك الى الامام ... تقوس ظهرك الى الوراء ... أدخلت
ركبتك في صدرك الحزين بنياشين عظيمة برزت في تحد غريب ... انتظرت ،
و « أول الغيث قطر » .. خيط رفيع من مخاط أخضر اللون تدلى مثل سلك
« بلاستيكي » مذاب ... لعقته بلسانك ، فأحسست بخفة وزنك ، وسريان
الدم في عروقك المنفخة تحت جلدك الاصفر . همست لنفسك : ما أحلى أيام
الطفولة ! طنحننا وأتخننا بأنواع المخاط الاخضر والاصفر .

أعدت التجربة مرة أخرى ، فأحسست بطعم الملح المشبع بالماء .
همست لنفسك مرة أخرى : كان خبزنا اليومي ثقل فيه « غرامات » الملح في
كل قطعة خبز تتأكل تدريجيا متخذة في النهاية شكل ذرات الملح !!
هذا أنا وهذه مدينتي : « غرامات » ملح وذرات خبز تذروها رياح
الشتاء التي تتخللها زخات المطر ، وعجنت أخيرا بالوحد ، وسيقان القصب
الجاف وعرق صبية المخبز التقليدي ونظرات صاحب صدوق النارية ...
صنعنا من كل ذلك أهزوجة ونشيدا وصلاة ، وردنا في الازقة والحارات وأمام
المخابز التقليدية بأصوات مرتفعة .

« المعلم بوزكري / طيب لي خبزي بكري / باش نعشي وليديتي »
هش ... تصب ... أوف ... اللعنة على الجديع .
غفينا مرة أخرى :

« المعلم بوزكري / طيب لي خبزي بكري / باش نعشي وليديتي »
قالت العرب : أف : اسم فعل بمعنى أتضجر ... لذلك فقد غفينا بأصرار
مرة أخرى ، ورفعنا أكتافنا وضحكنا ببراءة ... أرجلنا الصغيرة تقوس في
الوحد الاسود ، المخبز التقليدي تغري حرارته الشبقية باقتحامه ، والصندوق

النقدي يحظى بمسحات مباركة من يد المعلم « بوزكري » ... نظرنا الى المخبز والعلم « بوزكري » ومشارف المدينة الاخرى نظرات زائغة ... هذا أنا وهذه مدينتي ... المدينة الاخرى ليست أبدا بمدينتي ... تنظر الى من عل ... تحتضن مدينتي في « لين بغير ضعف وقسوة في غير عنف » .. المدينة الاخرى في مواجهة الرأس ، والرأس يواجه مدينتين ... انزلت الرأس بهدوء ، وجعلت وجهته المدينة ... مسحت على سطحه المنحني فترامى الى سمعك هدير دراجة نارية من نوع « ياماها » تمرق بسرعة مخلفة وراءها شريط من دخان أزرق وغبار أصفر ... تدهرجت الخوذة البلاستيكية فتذكرت قوانين السير التي تلزم السائقين باحترام اشارات المرور ووضع الخوذة البلاستيكية على رؤوسهم ... الرأس الذي كان يحاذي بصرك ينظر اليك نظرات كلب وفي ... أحببت المخاط واسترحت لقطراته المتساقطة بهدوء ... القطرات تكبر وتنتفخ ويشحب لونها الاخضر وتزداد سرعتها في التساقط ... سلك الرأس بعد تردد طويل :

- أريد خوذة بلاستيكية .

- « عليك بالمدينة الاخرى »

أحبته بلهجة قاطعة ... عاد الرأس الى وضعه الاول .. حاولت أن تتذكر ملامح تلك المرأة البضة التي شقت جيبها عندما اقتحم جندي من اللفيف الاجنبي بيتها بحجرته الواحدة ... تسمرت نظراته على صدرها الناصع ثم تراجع مذعورا الى الوراء ... أمسكت - متقدمة الى الامام - بصفيرتيها الغليظتين وجذبتهما بعنف متحدية الجندي الاشقر .

- اضرب .

سالت أمني عن معنى أن تبرز المرأة صدرها للرجل الغريب ، وأن تشد شعرها بكل هذا العنف ... نهرتني أمني وقالت ببساطة :

- أمر مخجل ... عار ... صدر الزوجة وشعرها ملك زوجها .

- ولكن ؟

- ماذا ؟

- لا شيء .

تمسح مرة أخرى على سطح الرأس المنحني ... المخاط الثقيل يتساقط بانتظام ... يسبل جفنيه ... الرأس رأسي ،،، يغمض جفنيه بقوة ،،، الرأس رأسي دائما ... العين تجمع والقلب يئنز دما ... الرأس رأسي ،،، الدموع فقاعات زجاج مصهور ... الدمعة تلو الدمعة ... الرأس رأسي ،،، الدمعة تلو الدمعة ، وعبر كل دمعة رأيت انسياب النهر العظيم والدماء السوداء المتجمدة على ضفتيه اليسرى والوجوه المنحوبة وامرازات الدمايل الطافحة بالصيد والديدان ... الرأس رأسي ... قال الرأس ،،، قلت أنا بصوت خافت :

- أين أنا ؟

كان وجهك - يا صغبرتي - قد تحول الى صفة نهر رائعة تشبه صفحة
نهرنا العظيم برائحته الطينية وأعشاب المروية وعبير برتقاله المتفنن .
الدمعة تلو الدمعة .

رائحة الجيف تعم المكان ... تسمع اصواتا وصراخا ، بل طلبات
نجدة ... ولكن أين أنا ؟

أغرب الغرائب في هذه المدينة أن ترى الوجه المتشنج دون أن تسمع
الصوت ... أي صوت ؟ فأين هي الصورة وأين هو الصوت ؟ تضيق المدينة
وتتحول الى أربعة جدران فاحت من جوانبها روائح البول والبراز والانفاس
المشبعة بالتبغ والحقد الاسود وعطانة الجثث المتفنة ... أربعة جدران تحمل
عبارات الذكرى واسم الانثى والقلب الذي اخترقه السهم الشهير والصليب
المعقوف أخيرا ... وليمنع منعا باتا الوقوف والجلوس والهبوط والصعود
والتنفس واختزان الهواء والنظر والتبول وحد مؤخرة الرأس وادخال اليدين
في جيوب السراويل ... احذروا انها اعمال لا أخلاقية ... الامهات تعبن من
خيطة الجيوب المتقوية لاشقياء هذه المدينة المشؤومة ... جسد نجوى فؤاد
الضخم المنبجس في احدى الملتصقات ينفع بقوة صاروخية نحو جيوب
اشقياء المدينة ... هذا الساق المكتنز تزهق من اجله الارواح للحصول على
لمسة خفيفة فوق بشرته المسهلة للانزلاق نحو منبع الخلق ... وما هو الموت؟
الموت موت في كل بقاع الارض ؟ تتحسس الجدار الرمادي اللون ... يصعقك
تيار قوي المفعول ... الطلاء نسيج لحم بشري ما زال يحتفظ بنوع من
اللمعان والرواء ... هكذا اذن ؟ انتظروا لم اكمل بعد . تزيله بهدوء :
القضبان الحديدية مرصوفة بانتظام بطريقة عمودية وافقية ... المذرة ،
ارتدت ... لماذا تندفعون الى الخارج ؟ دورات المياه مغلقة ... الشوارع غسلت
بالصابون المعطر حتى لا تدنسوها بفضلاتكم ... الكريهة ... ساكمل ...
الشرابين تغلي بدماء حارة ... تشدهما بحذر فتتعدد مثل اسلاك مطاطية ...
تتركها ثابتة ... تحدث تطينا يصم الأذان مثل أوتار قيثارة كهربائية ...
الدمعة تلو الدمعة .

وماذا تنتظر ؟ الفحم الحجري لن يزهر ولن تفتتح براعمه ... سيظل
ذهبا سيالا نحو خزانات جديدية ، لا تفتح الا بأرقام خاصة ورموز معقدة
ومعادلات رياضية ... لن ينهض الموتى من قبورهم وقد دهنوا رؤوسهم
الصلعاء بزيت اصيل ورقصوا على ايفاعات الحذبة ونظروا الى الافق قبي
تحدد وضابطة .

هذا أنا وهذه مدينتي ... الشمس محترقة ، والصهد يلتهم كل شيء ...
تحدث بملابسك الصوفية جيدا ... كدس الباقي بقها داخل هذه الحقيبة
السوداء ومن بدرى الاحوال الجوية لا تستقر على حال : رياح قوية ... قسرم
مفتشرة على الساحل ... ارتفاع في درجات الحرارة ... المنطقة الداخلية تغلي

بعواصف ثلجية ساخنة ... قطع الثلج يتصاعد منها البخار الساخن ... ثلج
محرق ... مآت الدرجات تحت الصفر داخل كل أربعة جدران ... تدثر جيذا ...
احكم ربطة عنقك الصوفية ... زرر معطفك الشتوي وسط هذا الحر اللافح ،
وتذكر أن فصل الصيف فصل المواسم والمجازيب والاعراس ... اترك كسل
سيء ... تعالى معي ... تمد يدك نحوها ... يطول ساعدك ويطول ... يتمطط
بافعوانية . ولكن أين أنا ؟

شع لمعان من خاتم أبيض اللون احتضن بنصرك ... ابتسمت
وخاطبتها بلهجة مسرحية :

- هذا العمل رد على القهر والانتكاس والمسح والكبت والموت .
يلمع الخاتم في أصبعيكما ، والانبهار شكل طوال التاريخ وسيلة
حتمية للخوف والحب والمعرفة .
ليبارك الله هذه الخطوات الاولى .

انسابت الدموع على أخاديد وجنتيك المحفورتين منذ عهد صخر وخناس ،
ثم ابتدأت رحلة العبور مرة أخرى .
- خطوة جبارة لاشك فيها .

أومات برأسك موافقا وأنت لم تسام التجذيف والسباحة عبر وجهها
الطفولي ... سألتها عن ثمن سطل نبات الصبار :
- نصف درهم .

نظرت الى نبات الصبار برؤوسه المدببة كقذائف صغيرة ثم رفعت
نظرك اليها مرة أخرى .

- الاشواك من نصيبي ... الامر هين ... نصف درهم وسنتيمات قليلة
لانترع الاشواك ... النبتة ستصبح ملساء مثل موزة شهية ... انظر جيذا .
تلتقط نبتة صبار مرصعة بأشواك توزعت بين القصر والطول ... تنغرس
ابهامها الطري ... تقفز « الفراخ » الكهربائية المبنجسة من البيض
الاصطناعي ... الافراخ تتكاثر بصورة غريبة ... الاصابع تنغرس في الاعشبة
الطرية ... رفضت بهزات سريعة من رأسك ... ضحكت بعينها البنيتين
فانغرست أشواك الصبار في الجلد الاسمر المدبوغ ، وتدفق الاحمر ...
- آه .. لو العقه بلساني .

- ماذا ؟ !

- أريد شربة ماء .

تمتد يد الى صفيحة قصديرية ، تقفز بسرعة نحو صحن أبيض من
الالومنيوم وتدفعه نحو الصفيحة القصديرية المائلة بطريقة أفقية .
- أريد أن أكون كلبا .

لعلقت الماء بلسانك من صحن الالومنيوم فأحسست بانتعاش لذيذ
وحاولت أن تكون كلبا عاديا لا أقل ولا أكثر .